الموقف الدولى فى حوض البحر المتوسط

أيام القرن الثامن عشر [1]

بقلم

الدكتورة زينب عصمت راشد

يحسن قبل الكلام عن الموقف الدولى فى حوض هذا البحر أيام القرن الثامن عشر ، أن نشير الى أهم الحقائق التى أثرت فى ذلك الموقف خلال القرنين السابقين (السادس عشر والسابع عشر) ؛ فلقد شهد أولهما تطورا خطيرا فى الموقف الدولى من هذا الحوض ، وذلك عند ما نجح العثمانيون فى بسط نفوذهم على جانبه الشرقى ؛ فغيروا من لونه وطابعه ، بحيث لم يعد البحر كله مجرد بحيرة مسيحية كما كان يعتبر منذ أيام القرن الثانى عشر . بل أصبح للعثمانيين فيه أكبر نفوذ ؛ فهم قد سيطروا على سواحل اليونان ، وآسيا الصغرى ، والشام ثم مصر . ومدوا سلطانهم على سواحل أفريقيا الشمالية ، كما وقعت فى أيديهم بعض جزائر الأرخبيل ، وبعض الجزر الأيونية ، ثم « رودس » و « قبرص » . كذلك استولوا فى النهاية على آخر قلعة من قلاع البنادقة فى شرق البحر وأعنى جزيرة « كريت » . وبذلك انهارت سيادة البنادقة البحرية فى شرق البحر انهيارا تاما [2] .

---

(١) قرىء هذا البحث بقاعة الجمعية الملكية للدراسات التاريخية فى ٢٧ مارس سنة ١٩٥٢ .

(٢) Fernand Braudel, La Méditerranée et Le Monde Méditerranéen à l'Epoque de Philippe II, Paris 1949, pp. 723-sqq

أنظر كذلك شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، والأستاذ توفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص١٣٦–١٧١ ، ٢١١–٢١٧

تلك كانت الحال فى الجانب الشرقى من حوض البحر أيام القرن السادس عشر ؛ فأما جانبه الغربى فكان واقعا تحت سلطان الامبراطورية الأسبانية تطوى فيه مملكة الصقليتين و « سردينيا » ، وتبسط حمايتها على جزيرة « مالطة » كما كان نفوذ هذه الأخيرة ممتدا على ساحل الرڤيرا وعلى جزيرة « قورسيقه » فقد أضحت بذلك حلقة اتصال مهمة بين فرعى أسرة « هابسبورج » فى كل من أسبانيا والنمسا والأراضى المنخفضة الأسبانية . والى جانب « چنوة » بدت على مسرح السياسة فى حوض البحر « دوقية ساڤوى » ؛ وهى وان لم تكن تملك من سواحل البحر مثل ماملكت « چنوة »، الا أن قربها من كل من فرنسا وايطاليا قد أعطاها قيمة استراتيجية عظيمة ، ثم هى فوق ذلك تشبه « چنوة » من حيث أهميتها كحلقة اتصال بين فرعى أسرة « هابسبورج » فى أسبانيا والنمسا . وأحست تلك الدوقية بمكانها هذا الخطير فاستغلته لمصلحتها الخاصة أحسن استغلال ؛ لم ترع فى ذلك عهدا ولا ميثاقا (١) .

وتستقبل الامبراطورية الأسبانية أيام القرن السابع عشر وقد أصابها من أسباب الضعف السياسى والاقتصادى ما أخرها على سبيل التقدم والنضال وأفسح المجال لدول أخرى قدر لها أن تلعب أدوارا مختلفة على مسرح السياسة فى حوض البحر .

فهذه فرنسا — وكانت ما تزال تذكر فشلها فى انتزاع السيادة من أسبانيا على ايطاليا — تتنبه الآن الى أهمية ذلك الحوض فى عهد كل من داهيتيها الكبيرين « ريشيلو » و « مزران » . ويتجلى ذلك بوضوح أثناء حرب الثلاثين عاما . ولقد حاول « مزران » أن ينتزع من أسبانيا مملكة الصقليتين غير أن محاولته باءت بالفشل .

---

(١) J. S. Corbett, England in the Mediterranean, London 1903, Vol. I. pp. 6-8.

ولم يقف الأمر عند يقظة فرنسا ، وانما ظهرت الى جانبها دولتان أخريان من دول أوربا الشمالية ، وأخذتا تشاركان فى سياسة ذلك البحر ؛ وهما هولندا (ما يعرف بالأقاليم المتحدة فى ذلك الوقت) ثم بريطانيا التى ظهر أسطولها فى عهد « كرمويل » على مياه ذلك البحر حوالى منتصف القرن السابع عشر فى مطاردة الأمير « روپير » Rupert . وينجح قائد الأسطول فى أن يرفع علم بريطانيا لأول مرة فوق مياه هذا البحر ؛ رفعه فى كل من « مالطة »و « البندقية » و « طولون » ثم « مرسيليا » .

وهكذا تبدو لبريطانيا سهولة تحقيق سلامة الطريق الى الهند بين يدى قائد ذلك الأسطول الذى كان أول من خلق لها فى ذلك البحر مكانا ممتازا.

وأحست فرنسا على أثر ذلك بخطر بريطانيا فى حوض البحر المتوسط ، فسمحت لهولندا — وهى يومئذ أخطر منافس لبريطانيا فى شئون البحر والتجارة — باستخدام ثغورها لتعينها على طرد البريطانيين من البحر . ولكن بريطانيا صمدت لمقاومة الفرنسيين والهولنديين معا مقاومة انتهت بانتصارها عليهما . فأتاح ذلك النصر لأسبانيا يومئذ أن تستعيد بعض نفوذها المفقود فى ذلك الحوض . وكان « كرمويل » أول من فكر فى الاستيلاء على « جبل طارق » ، وأول من شعر بأهمية التحالف مع البرتغال ، وتمكن بالفعل من عقد معاهدة معها فى عام ١٦٥٤ مكنته من تحقيق سياسته فى حوض ذلك البحر ؛ اذ غدت « لشبونه » منذ ذلك التحالف مأوى للسفن البريطانية [١] .

كانت « طنجة » أول موقع آل الى أيدى البريطانيين عند مدخل هذا البحر ؛ حيث تنازلت لهاعنها البرتغال عام ١٦٦٢ وذلك عقب زواج مليكهم

---

(١) يمكن تتبع تطور الموقف الدولى فى حوض البحر المتوسط فى تلك الحقبة بالتفصيل فى J. S. Corbett نفس المرجع ، الجزء الأول ص١٤٣—٢٩٧ ، والثانى ص٢٩٨—٢٩٩

« شارل الثانى » من أميرة برتغالية . وكان لثغر « طنجة » هذا أهمية كبرى من حيث كونه محطة صالحة لتصريف التجارة والسيطرة عليها فى طريقها الى أزمير [1] .

على أن بريطانيا لم تستطــع الاحتفاظ بهذا الثغــر طويلا ، ذلك لأن مليكها « شارل » الذى كان يفكر فى الاستئثار بالسلطة قد انصرف الى مشاكل بلاده الداخلية وكانت يومئذ تموج بالفتن والاضطرابات ، حتى بات يعتبر « طنجة » والمحافظة عليها من الأعباء الثقيلة ، مما اضطــره الى الجلاء عنها نهائيا فى مارس عام ١٦٨٤ [2] .

ثم تستقبل الدنيا أيام القرن الثامن عشر و « لويس الرابع عشر » يتربع على عرش فرنسا ، وأطماعه الكبرى وحروبه التى تثار من أجلها قد غدت خطرا يتهدد توازن القوى الدولى فى أوربا مما أثار أوربا عليه فوقفت دولها تتكاتف لايقافه عند حده ، الا أن ذلك لم يثمر بسبب موقف بريطانيا التى بدا لها يومئذ أن تحايد . وظلت على حيادها هذا حتى اعتلى عرشها « وليم أورنج » فأشركها فى الحلف القائم ضد « لويس الرابع عشر » . ولم يكد يفعل حتى استقبلت أوربا خطرا آخر اثارته وراثة عرش أسبانيا الذى اعتلاه واحد من أحفاد لويس الرابع عشر ، مما طوى فرنسا وأسبانيا معا تحت راية آل « بور بون » فحرص « وليم الثالث » فى مفاوضته مع فرنسا خلال تلك الفترة على ضمان حرية ذلك البحر .

وبدت المنافسة فى السيطرة على ذلك البحر على أشدها أثناء حــرب « الوراثة الأسبانية » . ومع أن الاستيلاء على عرش أسبانيا كان يتضمن الاستيلاء على مستعمراتها أيضا ، الا أن هذه الأخيرة كانت فيما يظهر قليلة الأهمية كما يتضح من جميع المكاتبات الخاصة بشبه الجزيرة نفسها فى ذلك

(١) أنظر نفس المرجع ، الجزء الثانى ، ص٣١٢ ، ٣٦٨

(٢) نفس المرجع ، الجزء الثانى ، ص ٤١٧-٤١٩

العهد ، فهى تشير كلها الى أهمية شبه الجزيرة وما يمكن أن تتيح للمسيطر عليها من نفوذ فى حوض البحر الذى بدا « لوليم الثالث » كمفتاح لحل مشاكل أوربا جميعا . ولم يغب ذلك كله عن بال «لويس الرابع عشر» عندما شرع ينفذ وصية « شارل الثانى » فيما يتعلق بتولية حفيده فيليب عرش أسبانيا ، فهو قد أمر بتحصين غالبية ثغور أسبانيا وعلى الأخص « قادس » و « بورت ماهون » فى « منورقه » ثم « جبل طارق » .

ولقد حرصت بريطانيا خلال حرب « الوراثة الأسبانية » على اتخاذ أول خطوة نحو تدعيم مراكزها فى حوض البحر ، فكانت التعليمات والأوامر التى زُوِّدَ بها أمير البحر البريطانى فى عام ١٧٠٢ تنص صراحة على ضرورة الاستيلاء على أحد ثغرى « قادس » أو « جبل طارق » كما دلت الأوامر التى صدرت خلال العامين التاليين على أن سياسة بريطانيا كانت تهدف الى السيطرة على المضايق عند مدخل البحر لتأمين مواصلاته الهامة . وكان فى عزمها ارسال الجزء الأكبر من أسطولها من أجل ذلك ومن أجل امداد الحرب فى ايطاليا ، ثم للحصول على مركز تستطيع منه مهاجمة جنوب فرنسا الشرقى ، لتقطع السبيل بين « لويس الرابع عشر » وبين موارده العظيمة . وبدا لها منذ الوهلة الأولى أن ثغر « طولون » هو خير مكان يتيح لها فرصة ذلك .

وبات خط بريطانيا فى النصر يطالع الأيام من كمينين : أولهما عند «ساقوى» التى انضمت الى بريطانيا وحلفائها فعرضت فرنسا فى البحر لخطر لم تستطع له ردا . وكان من جراء ذلك أن تغير الموقف من أساسه ، فتحول ميدان القتال من الأراضى المنخفضة الى منطقة « الدانوب » .

أما ثانى الكمينين ، فكان بين لفائف معاهدات « مثوين » Methuen (١) الشهيرة التى عقدتها بريطانيا مع البرتغال فى عام ١٧٠٣ ، وحصلت بمقتضاها

---

(١) H. V. Livermore, A History of Portugal, Cambridge 1947, pp. 327-329.

ـ الى جانب الامتيازات فى البرتغال ـ على استخدام ثغر « لشبونة » ، مما مهد لها ولحلفائها سبيل الاستيلاء على « جبل طارق »و « بورت ماهون»(١)

وهكذا نجحت بريطانيا فى الاستيلاء على « جبل طارق » فى عام ١٧٠٤ . الا أن موقفها قد بات حرجا لا يكاد يطمئن ؛ اذ كان من الواضح أن صاحب فرنسا لن يسكت على تلك الخســارة وأن جهودا مشتركة من جانب فرنسا وأسبانيا سوف تبذل لاسترجاع « جبل طارق » . كما كان واضحا أيضا أن شرف النصر وحظ الولاية لم يكونا من نصيب بريطانيــا وحدها ؛ وانما اشتركت فى ذلك أساطيل الحلفاء تحت راية « شارل الثالث » .

ولقد حاولت فرنسا وأسبانيا خلال عامى ١٧٠٤ ، ١٧٠٥ أن تستردا ذلك الموقع ، ولكنهما لم تفلحا فى ذلك .

وهكذا نجح « مارلبرا » Marlborough فى تحقيق خطته كما رسمها وسارت العمليات الحربية الجديدة نحو تحقيق الهدف سيرا حثيثا ثم ووجهت فرنسا عند حدودها الجنوبية بحرب يغذيها أعداؤها فى البحر الذى تحول بذلك من وسيلة ـ كانت ترى فيها فرنسا عونا على توحيد عملياتها الحربية فى أسبانيا وايطاليا ـ الى عائق يقوم فى سبيل تحقيق ذلك ، وبالتالى الى سبيل يتيح لأعدائها تنظيم عملياتهم الحربية لمهاجمتها .

هنالك وضحت أهمية « جبل طارق » العسكرية ، وكانت فيما يظهر غائبة عن الأذهان حتى تلك الفترة . فأما أهميتــه التجارية فقد كان يعرفها البريطانيون كما عرفوا من قبل أهمية ثغر « طنجه » .

ولن يقنع العسكريون فى بريطانيا باستيلائهم على « جبل طارق » مع اعترافهم بأهميته فى استقبال الأساطيل والتحكم فى مدخل البحر ؛ وانما

---

(١) H. A. L. Fisher; A History of Europe, London 3rd Edition, 1949, Vol. I, p. 685.

باتوا يفكرون فى غيره أيضا ، اذ كانوا يرون ضرورة السيطرة على ثغر آخر يتخذون منه مأوى لسفائنهم فى فصـــل الشـــتاء . ولذا ظل مشروع تحطيم ثغر « طولون » بعيدا عن التحقيق ما دامت السفن البريطانية وسفن الحلفاء مضطرة الى الانسحاب لتمضية فصل الشتاء فى « لشبونة » . كما بات من العسير على بريطانيا وحلفائها أن يسيطروا على ذلك البحر قبل أن تتحقق لهم السيطــرة على مثل ذلك الثغــر الذى يريدون . اذ كانت « مرســيليا » لا تلبث أن تسترد نشاطها التجارى على أثر انسحاب سفن بريطانيا وحلفائها من البحر ، كما كانت الحرب فى ايطاليا « وكتالونيا » — نتيجة لذلك — تنذر بطول مداها دون نتيجة حاسمة سريعة .

وهنالك بدت ضرورة الاســتيلاء على جزيرة « منورقة » Minorca لما عرف عن صلاحية ثغرها « بورت ماهون » Port Mahon الذى كان يعتبر يومئذ خير ثغور البحر المتوسط . وقد تم لبريطانيا الاستيلاء عليه بالفعل فى عام ١٧٠٨ . وكان لنجاح بريطانيا وحلفائها يومئذ أثر بالغ الخطورة فى كسب المؤيدين والأنصــار ؛ فلم يلبث البــابا أن اعترف بحق آل « هابسيوج » فى عرش أسبانيا . وكان لذلك كله نتائجه الوخيمة فى كل من فرنسا وأسبانيا وايطاليا .

انتهت حرب « الوارثة الأسبانية » بصلح « أترخت » عام ١٧١٣ الذى ترك فى أيدى البريطانيين « بورت ماهون » « وجبل طارق » ، وذلك رغم كل الاعتراضات التى أبديت من جانب الهولنديين يومئذ . وفى ذلك ما يشير الى قوة مركز بريطانيا من ناحية ، والى تفوقها على هولندا من ناحية أخرى ، ثم الى بدء ظهور نجمها السياسى فى سماء البحر المتوسط من ناحية ثالثة [1].

---

(١) أنظر Corbett ، نفس المرجع ، الجزء الثـــانى ، ص ٤٥٩ — ٥٦٨ لتتبع ظهور المنافســة بين الدول للسيطرة على ذلك الحوض ، وتطورها خلال حرب الوراثة الأسبانية .

ومن ذلك نرى أن « وليم الثالث » كان أول من فطن الى أهمية ذلك الحوض فى السيطرة على السياسة الأوربية . ومع ذلك فينبغى أن نشير هنا الى حقيقة هامة وهى أن اهتمام بريطانيا بسياسة ذلك البحر ظل فاترا ضعيفا حوالى ثلاثة أرباع قرن من تاريخ سقوط « جبل طارق » فى يدها . ولم يحصل مطلقا فى تلك الفترة أن اتفق ملك بريطانيا ولا وزراؤها ، ولا سفراؤها فى مدريد على سياسة معينة ازاء « جبل طارق » ؛ ولسوف يتضح لنا فيما يلى أن عروضا ومحاولات كانت فى بعض الأحايين تبدى من جانب أولئك جميعا للتنازل عن ذلك الموقع لأسبانيا (١) .

فقدت أسبانيا بمقتضى ذلك الصلح كثيرا من ممتلكاتها الأخرى فى حوض البحر ؛ فنزلت للنمسا — الى جانب الأراضى المنخفضة — عن «نابلى» و « سردينيا » ، « وميلان » ، كما استحوذت « ساقوى » على جزيرة « صقلية » وضمتها الى بقية أملاكها . على أن تلك النتائج لم ترض الامبراطور ولم ترض أسبانيا ، فهذا « شارل الثالث » مازال يعتبر نفسه ملك أسبانيا الحقيقى . وهذا «فيليب الخامس » يسوءه أن يفقد أملاكه فى كل من أسبانيا وايطاليا ، وهى أملاك يرى أنه خليق بالاحتفاظ بها كما احتفظ بها من سبقه من ملوك أسبانيا . وأولئك الايطاليون أنفسهم يمقتون حكم النمسا ويؤمهم فى ذلك اثنان من الايطاليين كانا يسيطران يومئذ على شئون أسبانيا . وهما : « البرونى » Alberoni كبير وزراء أسبانيا ثم Elisabeth Farnese مليكة هذه البلاد .

هنالك انصرفت كل من بريطانيا وهولندا الى المحافظة على السلم فى أوربا ، وكانوا يرونه فى الحرص على احترام شروط صلح أترخت . وعقدوا تأمينا لذلك ما أسموه « بالتحالف الثلاثى » فى عام ١٧١٧ . ومع ذلك فقد

(١) Walter F. Lord, England and France in the Mediterranean 1660-1830, London 1901, p. 8.

آعلنت أسبانيا الحرب على الامبراطور ، ونجحت قواتها بالفعل فى الاستيلاء على « سردينيا » ، مما جعل الامبراطور يقدم على الانضمام الى ذلك التحالف ليحقق بذلك « الحلف الرباعى » فى عام ١٧١٨ (١) .

وهنا يحاول سفير انجلترا فى مدريد أن يقنع « ألبرونى » بالانضمام الى التحالف الرباعى ، عارضا عليــه أن تتنــازل له انجلترا مقابل ذلك عن « جبل طارق » . وظاهر أن العوامل التى دعت السفير البريطانى الى ذلك العرض السخى أن أسبانيا فى تلك الفترة كانت تسيطر على الموقف الأوربى فى حوض البحر المتوسط ، كما كانت تهدد مركز أسرة «هانوفر» . Hanover فى انجلترا ، ذلك لأن « ألبرونى » كان قد تحالف مع « شارل الثانى عشر » ملك السويد ومع روسيا لاعادة المدعى عرش انجلترا من أسرة استيوارث (جيمس الثالث بن جيمس الثانى) وكان قد بيت النية على غزو انجلترا ، كما تعهدت روسيا بتقديم السفن اللازمة لنقل القوات السويدية . فلا عجب اذن فيما عرضه السفير البريطانى من نزول انجلترا عن « جبل طارق » . الا أن « ألبرونى » — وقد أخــذ على نفسه أن يضع أسبــانيا فى موضع المسيطر على شئون أوربا ، بعد أن أسكرته انتصاراته الأولى ، فظن أن من السهل تحقيق مشروعه الخاص باعادة « جيمس الثالث » الى انجلترا — رأى أن يرفض العرض الذى سيكون من الممكن تحقيقه اذا هو وفق فى تنفيذ خطته . فاستمر يتابع خططه فى حوض البحر المتوسط مهاجما « صقليه » . ولكن الأســطول البريطانى استطاع أن يشتت شمل الأسطول الأسبانى عند رأس « بسارو » Passaro فى أغسطس سنة ١٧١٨ . وفى نوفمبر من نفس العــام ، تخلت « ساڤوى » عن حليفتها آســبانيا وانضمت الى « الحلف الرباعى » .

---

(١) W. F. Reddaway, A History of Europe 1715-1814, London 1936, pp. 131-135.

وهكذا فقدت أسبانيا سيطرتها على الموقف فى حوض البحر المتوسط ، كما تفرغ النمساويون — عقب انتصارهم على الأتراك العثمانيين — الى مواجهة الموقف ، وفقد « ألبرونى » الأمل فى الاحتفاظ بانتصاراته الحديثة . ولم تكن أخبار الشمال بخير من ذلك . اذ قتل « شارل الثانى عشر » فى ديسمبر ١٧١٨ ، مما أحبط خطة « ألبرونى » فى الهجوم على انجلترا ، وبذلك أفقدته تلك الحوادث والمصائب ذلك المركز القوى الذى يتمتع به فاستبعد فى ديسمبر ١٧١٩ .

ومع أن « ألبرونى » قد اختفى من الميدان الا أن فكرة استرداد « جبل طارق » لم تختف باختفائه ، فعمل « فيليب الخامس » على استرداده واعتمد فى ذلك على صداقة Stanhope سفير بريطانيا فى مدريد ، وقد كان من أنصار فكرة رد ذلك الموقع لأسبانيا . ولكن مساعى «ستانهوب» لم تنجح نظرا لمعارضة البرلمان الانجليزى الشديدة لذلك . وكان سفير بريطانيا فى مدريد يرمى من وراء سياسته هذه الى الحصول على تحالفه مع أسبانيا ، ثم الى منعهامن الاتحاد معفرنسا . فنصحبأن يَطلُبَ منأسبانيا أن تتنازل لانجلترا عن « فلوريدا » أو « هسبنيولا » فى مقابل استرداد « جبل طارق » حتى تستطيع الحكومة الانجليزية أن تجرؤ على تقديم عرضها هذا للبرلمان . وكانت هذه هى المحاولة الثانية لرد « جبل طارق » لأسبانيا . ولكنها فشلت أيضا . وهكذا بينما كان الملك ووزراؤه مخلصين فى رغبتهم فى رد « جبل طارق » لأسبانيا ، كان البرلمان يرفض التنازل عن ذلك الموقع [1] . وقد صدقت تنبؤات « ستانهوب » فى أن رغبة أسبانيا فى استرداد « جبل طارق » ستدفعها الى أحضان فرنسا . وقد كانت تلك الرغبة عاملا هاما فى نشأة ما يعرف بالتعاقد الأسرى Pacte de Famille

(١) يمكن تتبع تاريخ تلك العروض الخاصة بالتنازل عن جبل طارق لأسبانيا فى Lord ، نفس المرجع ، ص ١٠—١٤

بين فرنسا وأسبانيا [1] كما كان استيلاء انجلترا على ذلك الموقع ، وعلى « بورت ماهون » سببا فى تسوىء العلاقات بين الدولتين [2] .

اضطرت اسبانيا أن تخضع لشروط الحلفاء عام ١٧٢٠ ، فاستعاد الامبراطور « صقلية » ، كما حصلت « سافوى » على تاج « سردينيا » (بدلا عن صقلية) وهكذا لم تحقق أسبانيا مطامعها فى ايطاليا . ولكن لا تلبث Elisabeth Farnese أن تحقق مطامعها فى « معاهدة فيينا » الثالثة (١٧٣٥ — ١٧٣٨) التى أنهت حرب « الوراثة البولندية » فتتوج ابنها الأكبر Don Carlos ملكا على مملكة الصقليتين [3] ولم تقف مطامع « اليزابث فرنيز » عند هذا الحد بل زجت بزوجها «فيليب الخامس » فى حرب الوراثة النمساوية طمعا فى أن تضيف الىأملاكها أملاكا جديدة فى ايطاليا . وهنا تتقارب فرنسا وأسبانيا فى علاقتهما فتجددان معاهدة التحالف الأسرى (وكانت أول معاهدة أسرية وقعت بينهما هى معاهدة Escurial فى عام ١٧٣٣) فتعقدان معاهدة Fontainbleau فى عام ١٧٤٣ وفيها وافقت فرنسا على تأييد أسبانيا فى سياستها الايطالية كما تعهدت فرنسا بمساعدة أسبانيا على استرداد « جبل طارق » . وقد كانت فرنسا فى حاجة الى معونة أسبانيا فى صراعها الاستعمارى مع انجلترا فيما يتعلق بأمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية والهند . وتمكنت أسبانيا من تحقيق سياستها فى ايطاليا بمقتضى صلح « اكس لاشابل » Aix-la Chapelle الذى أنهى حرب الوراثة النمساوية ، فنص على « احتفاظ Don Carlos بمملكة الصقليتين كما قضى بمنح « بارما » لدون فيليب

---

(١) Stetson Conn, Gibraltar in British Diplomacy in the eighteenth Century (Yale Historical Publications Miscellany, Vol. XLI), London 1942, p. 2.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧

(٣) أنظر تفاصيل ذلك فى Reddaway ، نفس المرجع ، ١٤٣—١٥٣

Don Philip الابن الثانى لايلزابث فرنيز Elisabeth Farnese وقدمنحت تلك التسوية ايطاليا — التى كانت مهد الصراع بين « البوربون » و « الهابسبورج » — فترة نصف قرن من السلام النسبى بينما تركت سائر المسائل الأخرى بين انجلترا وفرنسا من ناحية ، وبين انجلترا وأسبانيا من ناحية ثانية ، وبين بروسيا والنمسا من ناحية ثالثة — معلقة . هنالك كسبت أسرة « البوربون » موضعا ثالثا يحكم فيه فرع منها وأعادت الى أسبانيا نفوذها فى ايطاليا ، ذلك النفوذ الذى تمتعت به زهاء قرنين ثم فقدته فى معاهدة « أترخت » . ولو كانت أحوال أسبانيا الداخلية منتظمة اذا لأفادت من تلك الفترة فى موقفها القوى فى حوض البحر المتوسط فائدة عظمى ، ولكنها كانت منحلة تعانى فى شئونها الداخلية اختلالا عظيما مما جعل ملكها الجديد « فرديناند السادس » الذى خلف « فيليب الخامس » عام ١٧٤٦ يركز جهوده فى الاصلاح الداخلى ، ويتبع سياسة حياد كاملة فى الصراع بين انجلترا وفرنسا عند وقوع حرب سبع السنوات واستمر كذلك الى أن مات فى عام ١٧٥٩ وكان يؤيده فى تلك السياسة رئيس وزرائه « وول » Wall [١] وقد استفادت انجلترا من ذلك الموقف فائدة عظمى فى صراعها مع فرنسا .

لذلك ظلت انجلترا مسيطرة على حوض البحر المتوسط بالرغم من اتساع أملاك أسرة « البوربون » فى ذلك الحوض . ولكن عندما سقطت « منورقة » فى يد فرنسا سنة ١٧٥٦ عند مطلع حرب سبع السنوات فقدت انجلترا سيطرتها على ذلك البحر ، ولم يستطع القائد البحرى الانجليزى Hawke أن يتعرض للأسطول الفرنسى فى « طولون » ، بل

(١) أنظر سياسة كل من « فرديناند السادس » و « وول » فى
Zenab E. Rashed, The Peace of Paris 1763, London 1951, pp. 21-22, 33-37.

اضطر الى العودة الى انجلترا وهنالك استطاعت فرنسا أن تسيطر على ذلك البحر ، وأخذ قناصل انجلترا فى الثغور الايطالية والأسبانية يرددون الشكاوى لدى حكومتهم من تحكم الفرنسيين فى سفنهم . كما أصبحت « مالطة » عائقا فى سبيل التجارة الانجليزية فى ذلك الحوض . واشتد نشاط قراصنة دول البربر . وقد استطاع جزء مهم من الأسطول الفرنسى فى « طولون » خلال تلك الظروف أن يبارح حوض البحر المتوسط لاخضاع « لويزبرج » فى أمريكا دون أن تتعرض له السفن الانجليزية [1] .

وقد رأى « وليم پت » William Pitt أن يستخدم السياسة لحماية تجارة الشرق وتجارة حوض البحر المتوسط . وكانت القوى الأخرى التى تتحكم فى ذلك الحوض فى تلك الفترة الى جانب فرنسا هى : أسبانيا « ونابلى » « وسردينيا » ؛ فبذل «پت» جهده لضمان حياد تلك القوى أثناء نزاعه مع فرنسا . وقد سهل مهمة « پت » فى الحصول على حياد أسبانيا ماكان يدين به ملكها « فرديناند السادس » من اتباع سياسة حياد مطلقة من ناحية ، وما كان بين « پت » وكبير وزراء أسبانيا « وول » Wall من صداقة من ناحية أخرى . ومع ذلك فقد حاول « پت » فى بادىء الأمر عام ١٧٥٧ عقب سقوط « منورقة » أن يحصل على صداقة أسبانيا ومعاونتها فى حربه ضد فرنسا وقدم لها — سرا — عن طريق السفير البريطانى فى مدريد « كين » Keene « جبل طارق » فى مقابل معاونتها له فى استرداد « منورقة » من فرنسا (ونلاحظ أن هذه هى المرة الثالثة التى يعرض فيها وزراء انجلترا « جبل طارق » على أسبانيا) ولكن « فرديناند السادس » رفض وأبى أن يخرج عن سياسة الحياد التى اتنهجها [2] .

---

(١) Basil Williams, The Life of William Pitt, Earl of Chatham, Vol. I, p. 301.

(٢) أنظر Z. E. Rashed المرجع السابق ، ص ٨–٩

ونجح « پت » كذلك فى الحصــول على حيــاد المملكتين الأخريين ؛ « سردينيــا » « ونابلى » . وعلى الرغم من متاخمة أملاك « سردينيــا » لفرنسا ، تعهد ملكها بتقديم التسهيلات اللازمة للتجار الانجليز فى ممتلكاته. وقــد كان من حسن حظ انجلترا أن استطاع « وليم پت » أن يضمن لها فى بداية تلك الحرب مع فرنسا حياد دول البحر المتوسط ، ولولا ذلك لفقدت انجلترا أثناء الحرب تجارتها مع الشرق وفى حوض البحر ، ولاضطر قناصل انجلترا فى ثغور ذلك البحر المختلفة الى مغادرة مراكزهم ، ولفقدت انجلترا بالتالى عيونها الساهرة على تتبع العمليات البحرية التى يقوم بها الأسطول الفرنسى فى ذلك البحر [١] .

غير أن أسبانيا خرجت عن هذا الحياد بعد تولية « دون كارلوس » (ملك نابلى) على عرشها باسم « شارل الثالث » ، بعد توليته بسنتين ، فعقدت أسبانيا مع فرنسا معاهدات دفاعية هجومية فى سنة ١٨٦١ ، ويهمنا أن نذكر منها تجديد معاهدة « التحالف الأسرى » للمرة الثالثة ، وتعهد فرنسا برد « منورقة » الى أسبانيا حيث كان النصر حليفا لفرنسا وأسبانيا فى النهاية . وقد كانت رغبة « شارل الثالث » فى استرداد « جبل طارق » عاملا له أهميته فى دخوله الحرب ضد انجلترا سنة ١٧٦٢ [٢] .

انتهت تلك الفترة فى النزاع بين فرنســا وانجلترا (فترة حرب سبع السنوات) بصلح باريس عام ١٧٦٣ الذى فقدت فرنسا بمقتضاه معظم مستعمراتها ؛ فقدت كنــدا كلها كما فقدت مركزها على الساحل الغربى الأفريقى ، ثم فقدت مكانتها فى الهند ، ولم تحتفظ الا ببعض المواقع فى

(١) Basil Williams ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ٣٠٢

(٢) أنظر فى سـياسة شارل الثــالث وتجديد التحالف الأسرى للمرة الثــالثة
The Peace of Paris 1763, Chapter III, pp. 33-46.

جزر الهند الغربية [1] فماذا كانت النتائج التى ترتبت على ذلك بالنسبة لحوض البحر المتوسط ؟ . هل عندما اضطرت فرنسا أن تتخلى عن أملاكها فى المستعمرات النائية ، عملت على تعويض نفسها من ذلك بالتوسع فى أوربا ؟ . لقد أضطرت فرنسا أن تتنازل لانجلترا عن « منورقة » بمقتضى صلح باريس ١٧٦٣ ؛ كما رأت ان تعوض نفسها من بعض الخسارة التى لحقت بها فى ذلك الصلح بوضع يدها على « قورسيقه » وأن تخدم بذلك غرضا آخر وهو تقوية مركزها نظرا لقرب تلك الجزيرة من أراضيها . ويجب أن نلاحظ هنا أنه فى عام ١٧٦٨ — وهو العام الذى استولت فيه فرنسا على « قورسيقه » فى مقابل مبلغ من المال دفعته « لجنوه » — أن أهمية حوض البحر المتوسط كطريق يؤدى الى الشرق لم تكن قد ظهرت بعد ، كما أن فرنسا لم تعد ترى فيه تلك الرابطة التى تربط انجلترا بامبراطوريتها فى الشرق ؛ فتعمل بالتالى على قطع تلك الرابطة ، بل غاية ما فى الأمر أنها كانت تخشى أن تسىء اليها مطامع انجلترا فى ذلك البحر [2] .

استأنفت انجلترا عقب « صلح باريس » المركز الذى كانت تتمتع به فى حوض البحر المتوسط عقب صلح « أترخت » ، فقد ظلت محتلة « جبل طارق » « ومنورقة » . وقد زاد استيلاء فرنسا على « قورسيقه » فى أهمية هذين الموضوعين اللذين تحتلهما انجلترا فى ذلك الحوض . الا أن استيلاء فرنسا على « قورسيقة » لم يؤثر كثيرا على مركز انجلترا فى ذلك البحر ، ومع ذلك فقد عولت كل من فرنسا وأسبانيا على طرد الانجليز منه ؛ وانتهزتا فرصة النزاع الذى كان قائما بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية لاعلان الحرب على انجلترا عام ١٧٧٩ . فهاجمت قوتاهما البحرية

(١) أنظر شروط معاهدة صلح باريس فى المرجع السابق ، ص٢١٢-٢٢٩

(٢) Lord ، المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧

كلا من « منورقة » « وجبل طارق » . فسقطت « منورقة » فى عام ١٧٨٢ ، وكانت كسبا عظيما لأعداء انجلترا . أما «جبل طارق »فقد بقى فى يد انجلترا على الرغم من حصار دام ثلاث سنوات .

وبمقتضى صلح « ڤرساى » Versailles (سنة ١٧٨٣) ، الذى قرر استقلال الولايات المتحدة ، استردت أسبانيا « منورقة » ، بينما احتفظت انجلترا « بجبل طارق » . وقد ظلت انجلترا اثنى عشر عاما بعد ذلك التاريخ لا تقوم بأى عمليات حربية فى حوض البحر المتوسط ، فلم تحاول مثلا أن تضع يدها على موقع آخر فى ذلك البحر ليؤيد مركزها فى « جبل طارق » [1] .

وفى عام ١٧٨٩ وقعت الثورة الفرنسية فى فرنسا فكان لها آثارها الواضحة على سياسة ذلك الحوض . فقد عاد Pasquale de Paoli القورسيقى الى « قورسيقه » ليعيدها تحت حكمه . ثم اضطرت انجلترا أن تتدخل فى تلك الحوادث منحازة الى قضية « البوربون » . فعاونت الخارجين على الثورة فى طولون واحتلتها فى ١٧٩٣ ، ولكن نابليون نجح فى اجلاء القوات الانجليزية عنها . وقد اضطرت أن تترك فى ذلك الميناء خمسة عشرة سفينة ، كانت هى نواة الأسطول الذى نقل « نابليون » ورجاله الى مصر بعد ذلك التاريخ بأربعة أعوام ونصف . وقد كانت النتيجة المباشرة لجلاء القوات الانجليزية عن « طولون » احتلال « قورسيقة » . وكان Pasquale de Paoli هو الذى دعا انجلترا الى ذلك ، لأنه رأى استحالة الاحتفاظ بها بمفرده فظلت انجلترا تحتلها ثلاث سنوات . ذلك أنه فى عام ١٧٩٥ لم يبق لفرنسا من أعداء فى القارة الأوربية الا النمسا . وقد تمكن « نابليون » من هزيمتها هزيمة ساحقة فى ايطاليا فى العام التالى (١٧٩٦) وأصبحت فرنسا بذلك تسيطر على شبه

---

(١) أنظر نفس المرجع ، ص ٣٧–٤٠

الجزيرة كلها . ووقفت انجلترا عندئذ موقف المدافع عن نفسها ؛ فاحتلت جزيرة « البا » Elba ثم استولت على « كبراجا » Capraja الى الشمال من « البــا » . ولكن فى مستهل عام ١٧٩٧ اضــطرت انجلترا الى التخلى عن مواقعها الثلاثة فى حوض البحر المتوسط (Capraja. Elba. Corsica) وسحبت قواتها من ذلك البحر ، ثم ركزتها فى « جبل طارق » .

هكذا عاد الموقف فى حوض البحر المتوسط الى ما كان عليه منذ مائة عام مضت ، ذلك الموقف الذى طالما تمنت فرنسا تحقيقه ، بل كانت تؤيده بعض الأحزاب فى انجلترا نفسها ؛ وهو انســحاب القوات الانجليزية من حوض ذلك البحر . وفى عام ١٧٩٧ لم يعدلانجلترا نفوذ ما فىذلك الحوض؛ اللهم الا اذا استثنينا « جبل طارق » . فماذا كانت النتائج التى ترتبت على انسحاب انجلترا من حوض البحر المتوسط ؟ كانت النتيجة المباشرة لذلك اندفاع فرنسا نحو الشرق . وكانت فرنسا تعد العدة لذلك قبل وقوع تلك الحوادث بعام عندما حصلت من أملاك امبراطورية البندقية على « كورفو » Corfu بقلعتها الحصــينة وميناثها الصــالح لايواء الســفن ؛ مما دعا « نابليون » الى التصريح بأنه يكفيه الاستيلاء على « كورفو » و « مالطة » لكى يسيطر على البحر المتوسط . ولما كانت « كورفو » فى يده ، فقد كان عليه أن يستولى على « مالطة » وفعلا تم له ذلك فى عام ١٧٩٨ وذلك فى طريقه الى غزو مصر .

ومهما تكن الأسباب التى دفعت « نابليون » وحكومة الادارة الى القيام بمشروع الحملة على مصر ، فقد كان واضحا أن فرنسا رأت أن خير وسيلة لاضعاف انجلترا وهزيمتها هى مهاجمتها فى مستعمراتها فى الشرق وذلك بقطع مواصلاتها مع مستعمراتها فى الهند . وقد أحاطت فرنسا تلك الحملة بكل وسائل الكتمان . ومع ذلك بارح القــائد البحرى « نلسن » Nelson انجلترا فى ابريل سنة ١٧٩٨ ، وفى ٢ مايو من نفس العام ، أى قبل خروج الحملة الفرنسية الى البحر ، كان هو قــد تسلل بأسطوله الى

مياه ذلك البحر ، وكان غرضه من ذلك أن يعرف وجهة الأسطول الفرنسى ؛ وفى ١٩ مايو من نفس العام غادر « بونابرت » ثغر طولون واستطاع فى ١٢ يونية أن يستحوذ على « مالطة » . غير أن « نلسن » لم يلبث أن أحرز انتصارا حاسما على قوات الفرنسيين عندما حطم أسطولهم فى معركةأبو قير البحرية وذلك فى أغسطس عام ١٧٩٨ ولما لم يمض على القوات الفرنسية فى مصر شهر واحد .

وهنا نتريث قليلا لنسترجع أهم الحوادث والتغيرات التى طرأت على الموقف الدولى فى حوض البحر المتوسط عام ١٧٩٨ ، وفيه كانت فرنسا تتمتع بسلطان عظيم فى ذلك الحوض ؛ فهى تسيطر على « قورسيقه » وغيرها من الجزر التى بارحها البريطانيون ، كما تتمتع بنفوذها على « چنوه » التى ضمت اليها وعلى بعض الجزر الأيونيــة التى اقتطعتها من أمــلاك البنادقة . وهــذه « مالطة » التى سيطروا عليهــا فى طريقهم الى مصر كما سيطروا على الاسكندرية . بينما لم تكن بريطانيا تملك فى هذا البحر غير « جبل طارق » ؛ فكانت قواتها بذلك فى حكم المستبعدة عن مياه ذلك البحر . ولكن البحر لم يلبث غير قليل حتى شهد فى نفس العام انتصار « نلسن » الرائع على قوات الفرنسيين فى خليج أبو قير . وبعد قليل وقعت « مالطة » تحت نفوذ البريطانيين ، ثم تم اســتيلاؤهم للمرة الثــالثة على « منورقة » . كما استولت قوات الأتراك والروس على الجزر الأيونية التى كانت واقعة تحت سلطان فرنسا .

وهكذا شــهد عام ١٧٩٨ تطورا خطيرا فى ادراك الســاسة الأوربيين لأهمية ذلك البحر ؛ لكأنما كانت حملة « بونابرت » على مصر بمثابة ناقوس الخطر لم يكد يقرع أذهان أوربا حتى تنبهت دولها الى قيمة هذا البحر . وأدركت بريطانيا أن انسحابها منه قد أتاح لفرنسا فــرصة السيطرة عليه كما تبين لها أن نشاط فرنسا فى حوضه لا سيما فى هــذا العام انما كان خطرا يهدد المصالح البريطانية . وهنالك تضاعف حرصها على الاحتفاظ بما وقع فى يدها من ثغوره وجزره والعمــل على الاستحواذ على مواقع

أخرى . ولولا مهارة « نلسن » وصدق ادراكه وبعد نظره وسرعة حركته ومقدرته البحـرية الفائقة لاستطاع « بونابرت » — ولو الى حين — أن يتمتع بمركز ممتاز فى مياه هذا البحر . ولما حاول السيطرة عليه بعد ذلك التاريخ بخمسة أعوام أخفق لأن ظروفه يومئذ لم تمكنه من ذلك ، اذ كانت بريطانيا قد تنبهت بما فى ذلك من خطر على حياتها الاقتصادية والسياسية . وكانت محاولة بونابرت المذكورة بعد نقد معاهـدة « أميان » Amiens عام ١٨٠٣ أى بعد الحملة على مصر بخمس سنوات كانت كلها أيام قلق شديد بالنسبة للبريطانيين نظرا لما بلغته فرنسا من القوة بعد معاهدة «أميان» عام ١٨٠٢ .

ولقـد كان السلام فى تلك الفترة يتوقف على مصير جزيرة « مالطة » التى نص صلح « أميان » على ردها الى فرسان القديس يوحنا . وكانت تحتلها الفرق البريطانية منذ أن خضعت لانجلترا فى سبتمبر ١٨٠٠ بعد حصار دام عامين . وكانت بريطانيا تصر على الاحتفاظ بها . بينما يحرص « بونابرت » على الاستيلاء عليها ويرى أن خروجها من يده يضيع عليه سلطانه فى البحر المتوسط الذى كان يطمع فى السيطرة عليه . ولم يكن غريبا أن تتمسك كل من بريطانيا وفرنسا بتلك الجزيرة لأنها كانت بمثابة المدخل الى الشرق . ومن ثم قامت الحرب بينهما من جديد . وحاول « بونابرت » فى تلك الفترة أن يمد سلطانه على ايطاليا ليضعف بذلك نفـوذ بريطانيـا فى حـوض البحـر . ونجحت القـوات الفرنسـية فى الاستيلاء على Pescara, Otranto, Brindisi, Taranto. الا أن «بونابرت» بفعلته هذه قد أوقع قواته فى ايطاليا بين قوات البريطانيين فى « مالطة » وقوات الروس فى الجزر الأيونية .وعاندت الظروف « بونابرت » الذى كان يرمى الى هزيمة انجلترا فى البحر فأصابه الفشل ، وفسد تدبيره فى عام ١٨٠٥ عندما تحطمت قواته البحرية فى معركة « الطرف الأغر » فبدا له بعد ذلك أن يغادر البحر الى البر ليحقق فيه ما لم يتح له فى البحر . وقد أتاحت له بعض الانتصارات مركزا قويا فى القارة الأوربية فعاوده الأمل

فى السيطرة على حوض البحر المتوسط . وكانت « نابلى » هى المملكة الوحيدة فى ايطاليا التى لم تكن يومئذ واقعة تحت سلطانه فأخذها وجعل عليها أخاه « چوزيف » الذى خلفه القائد « مورا Murat » عند ماآل الى الأول عرش أسبانيا . ولما أراد « بونابرت » استغلال « نابلى » فى السيطرة على « صقلية » لم يستطع أخوه أمر ذلك اذ كانت تعوزه قوات البحر التى انحطمت فى موقعة « الطرف الأغر » . هنالك سارعت انجلترا الى الاستيلاء عليها .

ومن ذلك يبدو أن محاولة فرنسا فى السيطرة على حوض البحر للمرة الثانية قد ساعدت بريطانيا على تمكين سلطانها فى ذلك البحر كما فتحت أمامها الأبواب لمهاجمة الامبراطورية الفرنسية . وبذلك وقع « بونابرت » فى قبضة بريطانيا البحرية . ولم يخضع مع ذلك ولم يهادن وانما وقف يناضل ليسترد نفوذه فى ذلك البحر . فلما اجتمع مع « اسكندر » قيصر الروس فى « تلست Tilsit » عام ١٨٠٧ تنازل ذلك الأخير لفرنسا عن الجزر الأيونية . ولكن بريطانيا لم تلبث أن احتلت معظمها وان كانت لم تحتفظ بعد ذلك بغير « مالطة » ؛ فهى قد نزلت عن « منورقة » نهائيا لأسبانيا بمقتضى صلح « أميان » وردت مصر الى تركيا ، وصقلية الى نابلى [١] .

ذلك هو حوض البحر المتوسط فى بداية القرن التاسع عشر حيث انتهت مغامرات فرنسا فيه وجهودها المتواصلة الى قصر نفوذها على ساحلها المطل عليه من الشمال ثم على جزيرة « قورسيقة » ؛ وان كانت قد عوضت خسارتها فيه بعد ذلك ولكن على حساب دول البربر فى شمال أفريقية تلك الدول التى تركت وشأنها أثناء الصراع بين فرنسا وانجلترا من أجل السيطرة على مياه ذلك الحوض . وكانت فرنسا أسرع الدول الأوربية الى الاعتداء على تلك الدول فطوت منها الجزائر فى عام ١٨٣٠ ؛

(١) أنظر تطور الموقف الدولى فى حوض البحر المتوسط منذ وقوع حوادث الثورة الفرنسية فى المرجع السابق ، ص ٤٠ — ٦١

كما كانت أول دولة فى أوربا تنبهت الى قيمة ذلك البحر كطريق يؤدى الى الشرق فى نهاية القرن الثامن عشر . كذلك فقدت أسبانيا تلك المكانة التى كانت تتمتع بها ابان القرن السادس عشر وفى فترات متقطعة أيام القرنين التاليين ؛ فمع أنها استردت « منورقة » فان بريطانيا ظلت محتفظة بجبل طارق . كما أديل منهـا الى النمسا فى السيطـرة على شئـون ايطاليا ؛ فخرجت من يدها « البندقيـة » « ولمبارديا » وسائر الأقاليم الايطالية ، كما استردت النمسا فوق ذلك « تريستا » وساحل « دلماشيا » . وحرص الساسة فى أوربا على تقوية مملكة «سردينيا» فضموا اليها «چنوة» « وساقوى » ؛ لكأنما كانوا يعدونها للقيام بدورها الهام فى توحيد ايطاليا .

وظاهر مما تقدم أن بريطانيا لم يكن لها من الأمـلاك ما يتاخم ذلك الحوض ولم تكن لها سواحل تطل عليه ومع ذلك فقد وفقت فيه الى مركز ممتاز يسيطر على مركزه الغربى كما احتلت فى وسطه « مالطه » واستحوزت فى شرقه على بعض الجزر الأيونية ثم أخـذت تتطلع من وراء ذلك الى توسيع نفوذها فى شرقه لتأمين طريقها الى الهند وقد شهد القرن التاسع عشر معاركها الفاصلة فى هذه الناحية .